

الفصل الرابع

الطَّيْرَة ... الْفَأَل ... التَّشَاؤْم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ
أَلَا أَنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
[الأعراف : ١٣١]

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

[النمل : ٤٧]

﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ لَنْ لَمْ تَنْتَهُوا لِنَرْجِئَنَّكُمْ
وَيُؤَسِّسْكُمْ مِمَّا عَذَابَ أَلِيمٍ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ
ذَكَرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

[يس : ١٨ - ١٩]

الطَّيْرَة ... الْفَأَل ... التَّشَاؤُم

◀ معنى الطيرة والفأل والتشاؤم ، وغيرها :

كان العرب في الجاهلية يتفاءلون ويتشاءمون ، وكذلك كل الشعوب قديماً وحديثاً ، راقية ومتخلفة ، والتفأول والتشاؤم ، والسعد والنحس ، واليُمن والشؤم ، من الألغاز الغريبة في هذه الحياة .

وقد كان أهل الجاهلية يعرفون الطيرة أى التشاؤم ، وقد اشتقوا هذه التسمية من « الطير » لأنهم كانوا يزجرون الطير ويراقبون حركاتها عند الطيران ، فإذا اتجهت يميناً دلّت على فأل ، وإذا اتجهت يساراً دلت على شؤم ، فهم يتيامنون في الأولى ويتشاءمون أو يتطيرون في الثانية .

وكانوا إذا أرادوا القيام بأى عمل أو سفر أو حرب أو زواج أو تجارة أو غير ذلك من الأعمال ، زجروا الطير – وأحياناً الوحش على أنواعه – ليقرروا ما إذا كانوا يقومون بهذا العمل أو يمتنعون عنه .، وكانوا يعتقدون أن نحر الذبائح يزيل النحس ، لهذا فهم ينحرون عند الزواج ، وعند دخول العتبات الجديدة ، وغير ذلك من المناسبات ، ولاتزال هذه العادات موجودة إلى اليوم .

وكانوا أكثر ما يتشاءمون من الغراب ، فهو لديهم غراب البين ، والناعب بالخراب والبور ، ونذير الموت والشؤم والفراق ، ولذا

اشتقوا منه الغربة والاعتراب ، ولكنهم كانوا يتشاءمون من أشخاص وأشياء وطيور أخرى كثيرة كالبومة والوطواط والأعور والأشقر والعاهات والريخ الباردة وأيام النحس ... إلخ^(١) .

وفي «أدب الدنيا والدين» للماوردي قال : اعلم أنه ليس شيء أضرّ بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيّرة ، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل ، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»^(٢) فالعدوى ما يظنه الناس من تعدى العلل والأمراض فأخبر أنه لا تعدى فقليل يارسول الله إنا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير^(*) فتتعدى إلى جميعه فقال ﷺ : «فما أعدى الأول»^(٣) ، وأما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من أن القتيل إذا طلّ دمه فلم يُدرك بثأره صاحته هامة في القبر اسقوني . قال الزبرقان بن زيد يعنيتها :

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال إبراهيم بن هرمة :

وكيف وقد صاروا عظاماً وأقبرا

يصيح صداها بالعشّي وهامها

تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة

سريع إلى ورد الفناء كرامها

(١) حقائق وغرائب [ص/ ١٧٢ - ١٧٣] (بتصرف) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٨٠ ، ٢٦٩) ، (٢/ ٢٤ ، ٢٢٢) .

(*) مشفر البعير : شفته .

(٣) ذلك في رواية أحمد وابن ماجه والطبراني عن ابن عباس .

وأما الصفر فهو كالجنة يكون في الجو يصيب الماشية والناس وهو
أعدى عندهم من الجرب .

وقال الشاعر :

طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه^(١) بلوم
أى يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجرى لقوم وقوم
وقال لبيد :

لعمرك ما تدرى الضوارب الحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وحكى أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة :

شَفَّ المؤمِّل يوم الحيرة النظر
ليت المؤمِّل لم يُخلق له بصر

لَمَّا قَالَهَا عَمِي فَأَتَاهُ آتٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ : هَذَا مَا طَلَبْتَ^(٢) .

◀ حكم الإسلام في التَّطْيِير :

روى الإمام أحمد عن قَطَنَ بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ
يقول : « إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ » .

العيافة : زجر الطير والتفأول بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من
عادات العرب ، ولا يزال إلى يومنا هذا .

(١) أشابةُ الحزن إذا ابيض شعره ، وشابت الرؤوس ابيض شعرها .

(٢) أدب الدنيا والدين [٣٢١ - ٣٢٣] (بتصرف) .

الطرق : الخط يُحْطُ في الأرض ، وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء ، قلت : لعله ضرب الودع الآن .

الطيرة : التطير أى التفاؤل أو التشاؤم بالطير أو الطباء ونحوهما ، وقد نفاهما الشارع وأخبر أنه لا تأثير لها في جلب نفع ولا دفع ضرر ، ولما كانت الطيرة من الشرك^(١) المنافي لكمال التوحيد الواجب فإن الآيات والأحاديث النبوية حذَّرت منها .

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٢) ، وقد ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ الآية .

وعن أنى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم : أنه قال لرسول الله ﷺ « ومنا أناس يتطيرون . قال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته ، لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصده لما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأئمة الأمر ، وبَيَّن لهم فساد

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا يتطير ، ولكن الله يذهب بالتوكل » . رواه أبو داود والترمذى وصححه ، وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ورواه الطيالسى وأحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم فى المستدرک والبيهقى فى شعب الإيمان بلفظ : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك » ثلاثاً - راجع فتح المجيد شرح كتاب التوحيد [ص/٣٥٥ - ٣٧٢] .

(٢) الأعراف : ١٣١ .

الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ، ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى حد وحدانية الله تعالى التي أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السماوات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد ، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ، لئلا يبقى فيها علقه منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ، فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وباد خواطرها من قبل استمكانها .

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر ... ، فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر .
وخرج طاؤس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاؤس : وأى خير عند هذا ، لا تصحبني .

◀ الفأل :

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة ^(١) .

قال ابن القيم : ليس في الإعجاب بالفأل ومحبة شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها ، كما أخبرهم ﷺ أنه حُب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويجب حُسن الصوت

(١) أحمد والبخاري ومسلم والطيالسي وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة عن أنس .

وفي رواية « ويعجبني الفأل الصالح والفأل الصالح الكلمة الحسنة » .

بالقرآن والآذان ، ويستمع إليه ، ويحب مكارم الأخلاق ومكارم الشيم .

وقال الحليمي : إنما كان ﷺ يعجبه الفأل ، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

◀ **أُخِذَ الْفَأَلُ مِنْ آيَاتِ الْمَصْحَفِ :**

من البدع والضلالات المتعلقة بالفأل أُخِذَ الْفَأَلُ والبخت من المصحف ، ولا أدري ماذا يصنع صاحب البخت إذا وقف على آية : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾^(١) أو ﴿ لَنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴾^(٢) أو : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ ﴾^(٣) أو : ﴿ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ﴾^(٤) مثلاً !!!!

وفي كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد تفاعل يوماً في المصحف ، فخرج له قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾^(٥) ، فَمَزَّقَ المصحف ، وأنشأ يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهذا إذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد
فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتل شر قتلة ، وصُلب رأسه على قصره ثم على سور بلده ، فنعوذ بالله من البغي ومصارعه ، والشيطان ومصايده ، وهو حسبنا وعليه توكلنا .

وهذا فعل مذموم يجب تركه ومحاربته - أعني أخذ الفأل والبخت من آيات المصحف - والله أعلم .

• (٥) إبراهيم : ١٥ .

• (٣) العلق : ١٦ .

• (١) البقرة : ٢٧٩ .

• (٤) العلق : ١٨ .

• (٢) العلق : ١٥ .